وجوه التشريع لحقوق الإنسان في المملكة العربية السعودية

عبدالله بن مرعي بن محفوظ *

■ في تشريع حقوق الإنسان هناك ما هو مستمد من دين سماوي عادل (الدين الإسلامي) أو مستمد من قانون وضعي نتيجة الثورات الشعبية التي حدثت ضد الواقع الذي كان سائداً في القرون الوسطى. وخير مثال على ذلك الثورة الفرنسية عام (١٧٨٩) وكذلك الثورة الأميركية عام ١٧٧٥ ضد الاستعمار الإنكليزي، وأدت إلى إقامة أنظمة ديموقراطية تعتمد دستوراً دائماً ينظم علاقة الفرد بالحكومة وعلاقة الحكومة بالفرد.

وعلى رغم ذلك فإن الإنسان يبحث عن الحصيلة النهائية وهي التزام الحكومات مواد وفقرات القوانين التي تشرعها و تصدرها. وإن كانت دول العالم اجمع بما فيها دول العالم الثالث تفخر بإصدار قوانين وأنظمة تشير إلى عدالة أنظمتها واستقرارها وتوحي بثبات دساتيرها وأنظمة حكمها الأساسية. وهي تريد أن تواكب الدول الأوروبية والدول الأخرى في الأميركتين التي أسست تقدمها قبل كل شيء على دساتير ثابتة مضى على تشكيلها سنوات طويلة أكسبتها سمعة دولية قوية على رغم وجود ثغرات فيها، إلا أنه يكفي وجود ما يضمن الحقوق ويحدد الواجبات في إطار الدستور والقوانين المنبثقة من خلاله.

لكن الشيء المؤسف أن الدول المتقدمة أرادت لهذه الديموقراطية أن تنطلق من داخل أنظمتها إلى دول العالم الثالث من دون أن تقرأ تشريعات هذه الدول ومن أين هي مستمدة.

وإذا كان هناك حث من الدول المتقدمة لدول العالم الثالث على إصدار أنظمة وقوانين شبيهة بأنظمتها لتنظيم علاقة الفرد بحكومته، بسبب إحساسها بالخوف من انفراط عقد العلاقة بين الشعوب وحكوماتها، ما يؤدي بالتالي إلى مشكلات لا يمكن السيطرة عليها والتأثير على مصالحها الحيوية في هذه البلدان، لذلك أدى ضغط الدول الغربية إلى إجبار أنظمة العالم الثالث على تعديل وإصدار قوانين تنظم الحقوق بين الفرد والحكومة، وقيام بعض الدول باستنساخ فقرات ومواد من الأنظمة والقوانين الغربية وأدرجتها في لوائح قوانينها حيث أصبحت نسخة مشوهة وركيكة، وبقيت هذه النسخ المشوهة فضلاً عن افتقارها إلى المطابقة للمعايير الدولية لحقوق الإنسان غير مطبقة في الواقع .

وإن أذعنت هذه الحكومات العالم ثالثية لطلب التغيير قد تواجه أحياناً برفض داخلي، إما لتعارض التغيير مع نظامها المستمد من دينها مثلما في الدول التي تستمد أحكامها من الشريعة الإسلامية، أو في دول افريقية وآسيوية لها عادات وأعراف عريقة.

لذلك فإن إنشاء لجنة حقوق الإنسان الأهلية وكذلك حكومية في السعودية يسهم إلى حد كبير في تضييق وجهات الاختلاف مع المجتمع الغربي بصفة خاصة، حيث لن يقبل بتشريع نظام أو الموافقة على معاهدة تتعارض مع دستورنا الذي هو مستمد من الشريعة الإسلامية. وغالب الاعتراض الذي يأتي من السعودية والدول الإسلامية في الآتي:

١- إطلاق حرية الفرد (الإجهاض - حرية الدين - حرية الفكر والمعتقد - الجنس الثالث).

٢- الحرية السياسية (الأحزاب السياسية كالحزب الشيوعي).

٣- المساواة (مساواة الرجال بالنساء في الميراث والشهادة).

وخلال سبعين عاماً من توحيد المملكة حصل تطور في مجال التشريعات، ما هو عام في الأنظمة وما هو خاص بحقوق الإنسان، و بصورة مطردة مع التطورات الدولية في مجال حقوق الإنسان . فقد صدر النظام الأساسي للحكم عام ١٩٩٢ وشرّع نص المواد ٢٧ و٢٨ و٣٠ و٣٥ و٣٧ ما يمكن إدراجه بداية لنظام مستقل لحقوق الإنسان في المملكة وتتويج للمادة ٤٠ التي تنص على أن الدولة ترعى حقوق الإنسان وفقاً للشريعة الإسلامية .

إن المملكة قامت بالمصادقة على اتفاق القضاء على التميز ضد النساء واتفاق مكافحة التعذيب واتفاق حقوق الطفل، وهي بصدد المصادقة على الميثاق الدولي للحقوق المدنية والدولية الخاص بالحقوق السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

ويتوافق توقيعها على هذه المعاهدات، مع انشائها هيئة مستقلة هي «التحقيق والادعاء العام»، وقامت بإصدار نظام للمرافعات الشرعية ونظام الإجراءات الجزائية ونظام المحاماة.

والنظام القضائي في المملكة يسعى إلى التوسع والتخصص، فقد أكد وزير العدل السعودي على اتجاه الوزارة إلى استحداث محاكم متخصصة (محاكم تجارية - محاكم المرور - محاكم الأحداث) بما يواكب المتغيرات الدولية. والنظام القضائي يسعى إلى إحداث تغييرات جوهرية هيكلياً وإجرائياً، وهذا التطور يأتي لتحقيق الأهداف المضمنة في الشريعة الإسلامية وبصورة أفضل، ونتيجة لهذه الأنظمة الجديدة والمحاكم المتخصصة فإن النظام القضائي يمر الآن في بمرحلة انتقالية وتحديث.

إن التطور الكبير الآن في الأنظمة من وجهة النظر المتابعة الداخلية والخارجية يتجاوز حدود التغييرات الشكلية، أو تفعيل مواد النظام الأساسي الخاصة بالحقوق المدنية، وهي تغييرات ينظر إليها على أنها مؤشرات ايجابية على نيات السعودية واستجابات مشجعة من جانبها للتحديث والتطور.

وفي واقع الأمر، إن قائمة التغييرات، أو بمعنى أدق نجاح الحكومة في مواكبة التطور الدولي لا يقف عند حد المجال بالحقوق الإنسانية من ناحية التشريع بل أيضاً أمتد بهذه الحقوق إلى تطويرها في النواحي الاقتصادية والاجتماعية .

* مستشار قانوني سعودي. مؤلف كتاب «حقوق الانسان ما بين النظرية والتطبيق».

آخر أخبار «المسألة الشرقية» التي صارت عربية: ما يزال الرجل المريض يحتضر...

محمد كامل الخطيب *

■ يبدو ان قصة المسألة الشرقية، ورجلها المريض في القرن التاسع عشر، لا تزال تتابع فصولاً، أو انها لا تزال مستمرة، وجوهر المسألة الشرقية، كما هو معروف، هو انحلال أو تفكيك السلطنة، او الامبراطورية العثمانية، واقتسام مكوناتها وأجزائها، أو أملاكها بين الدول الأوروبية، او بين الدول القومية والرأسماليات والامبراطوريات الصاعدة والمتنازعة في القرن التاسع عشر. والخلاف بين هذه القوى المتنازعة حول تقسيم الجسد الامبراطوري العثماني هو ما اوجد المسألة الشرقية وأدخل الرجل المريض - وهو وصف يعود الى قيصر روسيا - في حال احتضار طويل استمر اكثر من مئة عام، الى ان تفككت هذه الامبراطورية اثر الحرب الأوروبية - العالمية الأولى، وتمكن المنتصرون الأقوياء من اقتسام الأملاك «الزائدة» بعد ان استطاع كمال اتاتورك الحفاظ على ما تبقى بإنشاء الجمهورية التركية الحديثة، بينما ورثت المنطقة العرب حال الرجل المريض، او ورثت المسألة الشرقية.

كيف بدأت المسألة الشرقية، وكيف تطورت حتى وصلت الى ما وصلت إليه في المنطقة العربية الآن على اعتاب القرن الحادي والعشرين، وكيف تجلت وتتجلى هذه المسألة الشرقية ورجلها المريض في المجتمع العربي الحديث وأحداثه الراهنة.

مع اكتشاف قارة اميركا، واكتشاف طريق الوصول الى الهند من طريق الدوران حول رأس الرجاء الصالح، من دون المرور عبر طريق الحرير، اي المنطقة العربية، فقدت هذه المنطقة اهميتها الاستراتيجية، وربما مركزيتها في معركة أو مسرح التاريخ العالمي آنذاك، هذا التاريخ، او هذا المسرح الذي كان يتمحور حول حوض البحر الأبيض المتوسط، وينساب الى الأعماق في أوروبا وآسيا وافريقيا، فباكتشاف اميركا ١٤٩٢ والدوران حول رأس الرجاء الصالح ١٤٩٨ فقد هذا البحر اهميته ومحوريته وانتقل مركز الثقل التاريخي، اي مركز التجارة والتبادل بمختلف اشكاله من هذا البحر الى المحيطين: الأطلسي والهادئ.

هكذا إذاً همشت ثم اغلقت اولى الدوائر في العصر الحديث على المنطقة العربية، فكيف ستنفتح هذه الدائرة المغلقة عبر التاريخ الآتي؟

انغلقت المنطقة العربية على نفسها ضمن الانغلاق العثماني العام، وخرجت من مجال الفعل التاريخي مع خروج العثمانيين، ما جعلها تركد وتستنقع وتفقد «الدوافع والمحركات والآليات والقوى» في وقت كانت تحدث اكتشافات لعوالم وأفكار جديدة، ومصادر للثروة جديدة في اوروبا، بل قامت في اوروبا علوم وتقنيات وتنظيمات وأفكار فلسفية وسياسية واجتماعية، كلها جديدة، ما ادى الى التحول الحضاري - الأوروبي العام، وفي كل مجالات المجتمع وأبعاده من اقتصاد وسياسة وثقافة وعلوم. وبتعبير شامل، جاءت بنية تاريخية اجتماعية حضارية جديدة تركت وراءها العالم القديم والعصور الوسطى، بما فيها الامبراطورية العثمانية. هذا التحول الجديد هو ما سمي بظهور العلم والعقلانية والبورجوازية، اي ظهور اوروبا الجديدة، المتحررة من الكنيسة والإقطاع. وسميت هذه الحركة التاريخية «صعود الرأسمالية» وهو الصعود الذي اتضحت معالمه الأخيرة، او ظهر شكله الواضح في القرن التاسع عشر، في حين بقيت المنطقة العربية مهمشة ضمن دائرة الامبراطورية العثمانية المغلقة تراوح ضمن دائرتيها: العثمانية الكبيرة، والعربية الصغيرة، وهما دائرتان مغلقتان متداخلتان وراكدتان.

الى هذه المنطقة المغلقة والراكدة، وإلى هذه الدائرة المغلقة أتت الحملة الفرنسية (١٨٩٨) على مصر وبلاد الشام، ومعروف ان نابليون في حملته على مصر لم يكن يقصد المنطقة لذاتها، او يقصد تهديد السلطنة العثمانية، بمقدار ما كان يريد مهاجمة بريطانيا عبر قطع الطريق عليها الى درة مستعمراتها: الهند.

ابتداء من هذا الحدث اعيد الاهتمام الى المنطقة، وأعيد إدراج هذه الدائرة في سيرورة التاريخ العالمي الجديد، لكن من موقع المفعول به وليس من موقع الفاعل او المشارك، اي من خلال كونها «بيدقان» او ارضية لصراعات بين قوتين او قوى متصارعة. وكانت القوتان المتصارعتان آنذاك هما بريطانيا وفرنسا، وبتعبير آخر فقد كسرت الدائرة المغلقة على نفسها، لكن كسرها اتى من خارجها، وكما تكسر اية كرة مغلقة على نفسها ومفرغة من الهواء، اي من قوى التفاعل الحية، كما في التجربة الفيزيائية المعروفة.

كان الهجوم الأول في العصر الحديث على المنطقة العربية، او كسر الدائرة المغلقة من خارجها، نتيجة الصراع الإنكليزي - أو الفرنسي احد اوجه هذا الصراع الأوروبي الرأسمالي الداخلي، والذي انتشر خارج اوروبا، اي بدأ يصبح صراعاً عالمياً، بمعنى ان مجاله صار العالم بأسره وكان هذا الهجوم الإنكليزي - الفرنسي هو عملية كسر الدائرة المفرغة من الهواء بضربة شديدة، ونتيجة عملية الكسر هذه، او نتيجة هذا الاختراق الأوروبي الرأسمالي، كما في المصطلح المتداول في ما بعد، بدرت ضمن المجتمعات العثمانية والعربية اولى بذور التحديث وعملياته ومشاريعه وأفكاره. وفي خضم هذه العملية ظهر محمد علي باشا في مصر، النقطة التي كسرت فيها وعندها الدائرة المغلقة، وكان جوهر تجربة محمد علي محاولة احياء السلطة العثمانية وتجديدها، أولاً، وعندما اخفق حلمه الكبير هذا في إصلاح السلطنة وتجديدها وجعلها تلحق بأوروبا اكتفى بحلم اصغر هو تجديد، أو إصلاح المنطقة، او الدائرة العربية الصغرى، وخصوصاً مركز الدائرة: سورية ومصر، ثم حوصر في مصر وحدها.

كانت خطة محمد علي في تنفيذ مشروعه هي الاعتماد على التناقض الإنكليزي - الفرنسي مع الميل الى الجانب الفرنسي، وعندما ضعف الصراع الفرنسي - الإنكليزي في مرحلة من مراحله احتلت مصر وسقط مشروع محمد علي كلياً، وهكذا انغلقت الدائرة من جديد ولكن مع الاستعمار الأوروبي هذه المرة وهو الاستعمار الذي كان احتل تونس والجزائر وعدن، الى ان قامت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤- ١٩١٨) فاكتمل إغلاق الدائرة الاستعمارية باحتلال العراق وبلاد الشام وتقديم فلسطين هدية للصهيونية او قاعدة اكثر أماناً للاحتلال والتوسع الأوروبي الرأسمالي.

وهكذا إذاً اغلقت الدائرة على المنطقة العربية بوقوعها، بكاملها تقريباً، بعد الحرب العالمية الأولى في حوزة الامبراطوريتين الاستعماريتين: فرنسا وبريطانيا، وبدا ان المسألة الشرقية انتهت بموت الرجل المريض واقتسام املاكه بين متصارعي القرن التاسع عشر، الامبراطوريين والرأسماليين. لكن مع الاستعمار والرأسمالية اللذين اغلقا الدائرة ظاهرياً كانت المنطقة العربية عادت الى المسرح التاريخي العالمي، وإن من موقع المسيطر عليه والمفعول به، وليس من موقع الفاعل او المشارك.

لقد ورثت المنطقة العربية، على ما يبدو، عقابيل المسألة الشرقية وآلام الرجل المريض ووضعيته، بل احتضاره الطويل المدى. فانتقل الرجل المريض هذه المرة من قرن الى قرن، بعد ان ضمر جسمه، لكنه بقي على سرير المرض ينتظر المتصارعين حوله بعد ان حاولت «الثورة العربية - ١٩١٦» في فاصل تاريخي، او فترة راحة بين المتصارعين مثل محاولة محمد علي في مصر، لكن في بلاد الشام هذه المرة، اي علاج الرجل المريض في إقامة دولة عربية، لكن، مرة ثانية ايضاً، من طريق اللعب على التناقضات الدولية بين فرنسا وبريطانيا مع ميل الى الامبراطورية العثمانية المنهارة، لكن فرنسا وبريطانيا توصلتا الى اتفاق، او تفاهم ودي وتاريخي بينهما اخذت بموجبه بريطانيا مصر، فلسطين، العراق والأردن، وأخذت فرنسا المغرب العربي وسورية ولبنان.

لم يطل عمر محاولة الحكومة العربية (في بلاد الشام) اكثر من عامين (١٩١٨ - ١٩٢٠) حتى دخل الفرنسيون دمشق. فالدائرة كسرت من خارجها كما حدث من قبل، وانغلقت على نفسها بالاستعمار أو الاحتلال الذي صار ماثلاً في المنطقة العربية. وقد استمر اغلاق هذه الدائرة حتى الحرب العالمية الثانية، اي عملياً خلال النصف الأول من القرن العشرين.

كان هناك لاعب جديد، وكان دخل الى مسرح العالم، في نهاية الحرب الأولى، وهذا اللاعب الجديد هو اميركا، لكن هذا اللاعب سرعان ما انسحب بعد ان اعلن الرئيس وودرو ويلسون مبادئه وضمّنها حق الشعوب في تقرير مصيرها، وإعجاباً بهذا الطرح الجديد طالب السوريون بانتداب اميركا على سورية، إذا كان لا بد من انتداب، لئلا تقع بلادهم في يدي الامبراطورية الفرنسية التي يعرفونها جيداً منذ القرن التاسع عشر، ويعرفون تدخلاتها ورغبتها في تقسيم بلادهم والسيطرة عليها، لكن الفرنسيين وبالاتفاق مع الإنكليز اقتسموا الأملاك العثمانية، فانسحبت اميركا، بينما اخذت ألمانيا تعيد بناء نفسها مثلما اشغل البلاشفة بحروبهم الأهلية وبنائهم النظام الجديد، الى ان حدثت الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩- ١٩٤٥) وكانت نتيجتها بداية غروب الامبراطوريتين الفرنسية والإنكليزية وظهور امبراطوريتين أو قوتين جديدتين هما الامبراطورية الأميركية الرأسمالية والامبراطورية السوفياتية الاشتراكية. وكتعبير عن واقع التوازن الامبراطوري الدولي الجديد وكما يحدث، بعد كل تغيير في موازين القوى الدولية، قامت منظمة دولية جديدة هي الأمم المتحدة عام (١٩٤٥) لتحل محل «عصبة الأمم» التي انهارت مع قيام الحرب العالمية الثانية.

كادت الامبراطورية الأميركية ان ترث الامبراطوريات الأوروبية الغارية مجتمعة، إلا ان امبراطورية ممانعة وجديدة هي الامبراطورية السوفياتية، مجددة شباب الامبراطورية القيصرية الروسية في القرن العشرين، وقفت حجر عثرة.

كان مشروع الامبراطورية الأميركية وراثة أو تجديد المشروع الرأسمالي - اياه للعالم، ولهذا فلم يكن من معنى لوجود الامبراطورية الروسية إن لم يكن مشروعها مناقضاً، اي اشتراكياً للعالم. وبدأت المجابهة بين هاتين الامبراطوريتين عقب نهاية الحرب العالمية الثانية وخروجهما، اميركا وروسيا، منتصرتين حتى على ألمانيا النازية وإيطاليا واليابان، وعلى كل العالم القديم حقيقة وعملياً.

كسرت الدائرة المغلقة من خارجها، فنتيجة الصراع الدولي الجديد وموازين قواه الجديدة، اضطرت فرنسا وبريطانيا للانسحاب، لتتكون بعد ذلك دولة الاستقلال، ما اوجد الفراغ الذي تكلم عليه الرئيس الأميركي دوايت ايزنهاور، وحاول في اواسط الخمسينات من القرن العشرين ان يملأه بالنفوذ الأميركي قبل ان يملأه النفوذ السوفياتي المتقدم على اجنحة «حركة التحرر الوطني العربي» بعد انحسار النفوذين البريطاني والفرنسي. وفي هذا الفراغ الفاصل، الذي بدأ منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، واتسع في الخمسينات والستينات من القرن العشرين، قامت المحاولة الثالثة لعلاج الرجل المريض بأدوية محلية، وتقدمت قوى محلية «وطنية» لحل المسألة الشرقية، بحسب «المصلحة الوطنية».

في هذا الفاصل التاريخي بين غروب قوتين امبراطوريتين قديمتين وبزوغ قوتين امبراطوريتين جديدتين، كانت بعض ابنية المجتمع العربي الاجتماعية والثقافية بدأت بالتغير نتيجة فترة راحة وشيء من الحرية مع العودة الى مسرح التاريخ العالمي والخضوع للتأثيرات الأوروبية والرأسمالية، وهكذا ظهرت قوى وأفكار وأوضاع اجتماعية جديدة ما لبثت ان بدأت تصعد الى السلطة وتسيطر على الدولة في «دولة الاستقلال» لكن ضمن مناخ الحرب الباردة وضمن آليات أو أوضاع الصراع والتنافس بين الامبراطوريتين الجديدتين المتحكمتين في دفة الصراع الدولي الجديد: الامبراطورية الأميركية والامبراطورية السوفياتية، ومع وجود شوكة في القلب العربي هذه المرة اسمها اسرائيل. وكانت المفاجأة ان تجربة محمد علي في مصر خلال القرن التاسع عشر، وتجربة فيصل بن الحسين في سورية اوائل القرن العشرين (١٩١٨- ١٩٢٠)، اعيدت بحذافيرها للمرة الثالثة في دول الاستقلال العربي والجامعة العربية، اي تجربة محاولة التجديد والإصلاح وبناء الدولة وعلاج الرجل المريض، مع اضافة «الثورة» هذه المرة، لكن من خلال اللعب على التناقض مع الامبراطوريتين الجديدتين، الأميركية والسوفياتية، هذه المرة في سبيل ملء الفراغ التاريخي - الجغرافي - الحضاري بقوى محلية وطنية، تماماً مثلما حاول محمد علي وفيصل بن الحسين اللعب على التناقضات ما بين فرنسا وبريطانيا، كل في زمانه ومكانه، وهذه لعبة اتهم خالد العظم في مذكراته، جمال عبدالناصر بممارستها، وذلك باللعب على التناقض ما بين الأميركيين والروس. وهكذا وقعت المنطقة العربية مرة اخرى، بين فكي كماشة جديدة طرفاها: اميركا وروسيا. ومن ثم استقطبت المنطقة بين قسم مال للامبراطورية الأميركية وهو ما سمي الأقطار العربية (المحافظة) بينما مال قسم آخر الى طرف الكماشة السوفياتية وهو ما عرف بالأقطار العربية «الراديكالية». وكان هذا يعني، إعادة الدائرة وإعادة اقتسام املاك الرجل المريض، ما بين الامبراطورية الأميركية والامبراطورية السوفياتية، مثلما كانت المنطقة العربية مقسمة في الماضي بين الامبراطورية الإنكليزية والامبراطورية الفرنسية، ما اظهر ان المسألة الشرقية حاضرة ومستمرة، وأن الرجل المريض لا يزال مريضاً.

ولكن، يلاحظ اتفاق الطرفين الراديكالي والمحافظ، اي من مال الى الامبراطورية السوفياتية، ومن مال الى الامبراطورية الأميركية على «الخصوصية العربية» التي تقوم على التبشير ضد عالم وحضارة اوروبية مادية فانية. إنها بالضبط «الخصوصية العربية» التي هي في حقيقتها «المسألة الشرقية» وقد بات اسمها الجديد «المسألة العربية».

* كاتب سوري. والنص من كتاب يصدر قريباً.

في ذكرى رحيل فيصل الأوّل (٢ من ٦)

هذا بيان للنّاس كافّةً

الحسن بن طلال *

■ كيف نصف الوضعَ الهُلاميّ الضّبابيّ اليوم في العراق؟ هنالك وصفَان: أميركيّ، وعراقيّ عربيّ. وأيّاً تكنْ تفاصيل كلّ واحد من هذَين الوصفَين، وأيّاً تكنِ «النيات» و«الدّوافع» و«المقاصد» التي يمكن أنْ يحتجّ بها كل طرف ويدّعيها لنفسه، فإنّه لا قيمةَ لهذا على الإطلاق. القيمةُ الحقيقيّة هي لما سيوجد على أرض الواقع. فبالمطابقة بين «الوصفَ» و«الموجود»، تتحدّد حقيقة «الدّوافع» و«النيات»، ويُكشف السّتر عن حقيقة «المقاصد» و«الأهداف»... قوات التّحالف، وعلى رأسها الولايات المتّحدة وبريطانيا، موجودة في العراق باعتبارها قوّات احتلال. والسّؤال هنا: هل نحن أمام احتلال سيتحوّل إلى استعمار وهيمنة؛ فيشعل فتيلَ ثورة شعبيّة ومقاومة شرسة، يمتدّ الحريق معها وبعدها إلى المناطق المجاورة؟ أم نحن في مرحلة انتقاليّة تريد فيها الولايات المتّحدة بكلّ صدقٍ ونقاء أنْ تبنيَ العراق دولة حديثة بالفعل، وديموقراطيّة حقيقيّة، ومجتمعاً متطوّراً، واقتصاداً سريع النّموّ، لكلّ أبناء العراق؟

إذا صحّ الاحتمال الأخير، فإنّ الولايات المتّحدة ستفتتح به عهداً جديداً مختلفاً تماماً في العَلاقات العربيّة - الأميركيّة. ولن يكونَ العراق يومئذٍ مجرّد نموذج ناجح لكلّ جيرانه؛ بل سيتغيّر أيضاً مستقبل المنطقةُ كلّها. وستجد الولايات المتّحدة أنّها حين تحوّلت مِن النّظر إلى العرب كمضيفين للنّفط إلى كوْنهم شركاءَ المستقبل، فقد ضمنت بحقّ تحالفاً هي أحوجُ ما تكون إليه. أما إن أسفرت المرحلة الهُلاميّة الانتقاليّة عن عراق مشوّه الكيان، فإنّ الحريق سيودي بكلّ أمل في علاقة طيّبة مع الأمّة العربيّة؛ دعْك من أيّ احتمال للشّراكة.

وبين الاحتمالَيْن السّابقين، اللّذيْن لا أحدَ غيْر الولايات المتّحدة يملك إعطاء الصّدقيّة لأيّ منهما، تقف بعض الشّواهد والأحداث التي يرقبها كلّ عربيّ بصمت، لكن عن كثب:

– كيف نفسّر السّرعة في تدفّق النّفط العراقيّ إلى الخارج، والمواطن العراقيّ لا يجد وقودَ سيّارته؟!

– كيف نفسّر التلكؤ والتّباطؤ وعدم الوضوح في كل ما يُخطّط للعراق؟! هل نحن إزاء الهيمنة على كنز النّفط ونَهْبه بقوّة الدفع؟ أم نحن في صدد مساعدة الشّعب العراقيّ على استعادة حريّته وحقوقه؟ إذاً، أين الحكومةُ الانتقاليّة؟ وأين الدّستور الذي يرضي به الشّعب، وليس الدّستور الذي يُعلن المحتلّ أنّ الشّعبَ قد وافق عليه؟ هل يُراد للعراق أنْ يحقّق مصالحه الوطنيّة، أم يُراد إجباره على العمل ضدّ مصلحته الوطنيّة؟ كيف نفسّر حرمان ملايين العراقيّين من حقّ العيش بحجّة أنّ ربّ الأسرة العائل كان عضواً في حزب البعث؟ هل نُريد دمل الجراح ونسيان الماضي والتّحرّك جميعاً نحو المستقبل، أم نريد إبادة قسم آخر من هذا الشّعب؟ ألا يحوّل هذا الموقف ملايين العراقيّين إلى قوّة شرسة تقاوم حتّى الموت، ما دام الموت جوعاً هو قرار القاضي الأميركيّ؟

– هل يؤمن المحتلّ بأنّ الشّعبَ مصدرُ كلّ السّلطات؟ إذاً، أين الانتخابات النّزيهة الممثّلة لكلّ الطّيف؟ هل نريد للعراق أنْ يكون النّموذجَ الطّيّب؟ إذاً، لماذا لا تعيد القوّات المحتلّة كلّ قطعة أثريّة أو فنّيّة أو تاريخيّة نُهبت من متاحف العراق؟ لماذا لا تجرى محاكمة علنيّة لكشف كلّ مَن شاركوا في هذا العمل البربريّ، المعادي للحضارة والدّين والقيَم الخُلقيّة؟ لماذا لا نكشف بالأدلّة من يقف وراءهم، وإلى أين اتّجهت المسروقات؟ إنّ البيانات لا تكفي لبراءة أيّ دولة من هذا الجُرم الحضاريّ. فكلّ من فعل هذا يتنصّل بحُكْم الطّبيعة من جريمته؛ لكنّ المهمّ هو الأدلّة الدّامغة التي لا يشك فيها أحد.

– هل تريد الولايات المتّحدة تحقيقَ التّحديث، والتّقدّم الاقتصاديّ والاجتماعيّ والثّقافيّ للعراق؟ هل تَنظر إلى العراق على أنّه أكثرُ من بضع مئات من آبار الذّهب؟ إذاً، لماذا يتراجع النّشاط الاقتصاديّ في العراق على نحو يُفقر الجميع؟ وهل هنالك احترام حقيقيّ لا لفظيّ للخصوصيّة الثّقافيّة للمسلمين في العراق على اختلاف مذاهبهم؟ لماذا ترفض الإدارة الأميركيّة إجراء انتخابات للمَجالس المحلّيّة، على بُعْد هذه عن تحقيق إدارة سياسيّة وطنيّة؛ إذ إنّ الأخيرة لا تكون بغير انتخابات عامّة شفّافة لقيام مجلس أمّة؟

– الأميركيّون يتحدّثون عن «إعادة إعمار العراق». فهل نحن أمام «فرص» للشّركات الأميركيّة لكسب مال الشّعب العراقيّ؟ أم أمام إعمار تشرف عليه جهات ذات مسؤوليّة وطنيّة وخُلقيّة؟

إنّ كلّ سؤال لا بدّ من أن يستلزمَ من الشّعب العراقيّ موْقفاً: إما المضيّ مع أميركا لغاياتٍ نبيلة، أو إشهار سلاح المقاومة!

* رئيس منتدى الفكر العربي وراعيه. رئيس نادي روما.

ألف وجه لألف عالم

«البراغماتية» لويليام جيمس: فلسفة إنسانية على الطريقة الأميركية

■ «الانتقال من الفلسفة التقليدية - واقعية كانت أم مثالية - الى الفلسفة البراغماتية، هو انتقال من الأمس الى الغد. فبعد أن كان أساس الحكم على قول ما بالصدق أو البطلان، هو الرجوع الى الأصل الذي بعث على تقرير ما يقرره القول، أصبح الأساس هو النتائج التي تترتب عليه. فالكلام صواب أو خطأ، والنظرية من نظريات العلوم حق أو باطل، بمقدار ما يعين ذلك الكلام أو هذه النظرية على ترسّم طريقنا في الحياة العملية، لا بمقدار تطابقه مع الواقعة التي يصورها، أو اتساقه مع غيره من الأفكار. وفي بيان الفارق بين نظرة الفلسفة التقليدية من جهة، ونظرة الفلسفة البراغماتية من جهة أخرى، لا تمييز في ذلك بين الشعبتين الرئيستين اللتين منهما تتكون الفلسفة التقليدية على اختلاف ألوانها، وهما الواقعية أو التجريبية ثم المثالية، فالقول صادق عند الأولى إذا طابق العالم الخارجي على نحو ما، أي انه نسخة من أصل موجود خارج الانسان، وسواء جاءت هذه النسخة طبق أصلها - كما تذهب الواقعية الساذجة - أم أصابها تحوير في العقل - كما تذهب الواقعية النقدية - فأساس الحكم على كل حال، هو علاقة بين الفكرة التي نشأت عند الشخص العارف وبين الشيء المعروف الذي هو حقيقة قائمة بذاتها مستقلة بوجودها(...). ولقد جاءت البراغماتية لتغير وجهة النظر هذه من أساسها، فبدل الالتفات الى ما «كان» عند تحقيقنا فكرة ما، نلتفت الى ما «سيكون»(...) وهذه اللفتة الجديدة عنصر مشترك بين البراغماتيين جميعاً. بهذه العبارات يعرف د. زكي نجيب محمود الفوارق الاجمالية بين الفلسفة كما كانت عليه قبل البراغماتية وما صارت عليه بعدها.

وهو يقول لنا (في فصل من كتابه «حياة الفكر في العالم الجديد») ان تشارلز بيرس، الانكليزي، كان هو الذي شق الطريق للوصول الى هذه الفلسفة، لكنه يتوقف أساساً من قطبين من أقطابها: ويليام جيمس وجون ديوي. وويليام جيمس هو، على أي حال، واضع الكتاب الأهم والأوفى في التعبير عن هذه الفلسفة «الجديدة»، خصوصاً أنه هو الذي «ينظر اليه العالم على أنه نموذج الفيلسوف الأميركي، وعنوان الفلسفة الأميركية». أما فلسفة ويليام جيمس فتتلخص في شكل جيد وحاسم في كتابه الأساس «البراغماتية: اسم جديد لبعض طرق التفكير العتيقة. قراءة شعبية في الفلسفة». وهذا الكتاب صدر عام ١٩٠٧، ضاماً سلسلة محاضرات كان جيمس ألقاها خلال العامين السابقين وعرض فيها هذه الفلسفة الجديدة، غير غاض الطرف عن أن زميله الانكليزي تشارلز بيرس كان سبقه، جزئياً، الى ذلك قبل عشرين عاماً، في مقاله الشهير: «كيف نجعل أفكارنا واضحة». فالحقيقة هي أن بيرس كان أول «مبتدع» للبراغماتية في ذلك النص الذي حدد المبدأ الذي سيحوز شهرة واسعة منذ ذلك الحين وفحواه: انه من أجل تطوير فكرة ما وفرضها، يتعين علينا أولاً أن نحدد السلوك الذي سنكون قادرين على استثارته.

● والحقيقة ان هذا المبدأ نفسه هو الذي استحوذ عليه ويليام جيمس بعد عقدين من السنين، ليجعله محور

ويليام جيمس (١٨٤٢-١٩١٠).

كتاباته الفلسفية، علماً أن بيرس كان هو الذي استخدم كلمة «براغماتيزم» للمرة الأولى مشتقاً المصطلح من كلمة «براغما» الإغريقية التي تعني العمل أو الفعل. ومنذ ذلك الحين دخل هذا المصطلح الحياة اليومية، تماماً كما دخل الحياة الفكرية... وفي الحالين كان له المحمول نفسه. أما اللذان نشراه في طول العالم وعرضه فكانا ديوي وجيمس. ولا سيما هذا الأخير الذي راح يجول في العالم محاضراً، ناشراً دراساته، وفي انطلاق دائم من مبدأ أكثر وضوحاً يقول ان ما من «منظومة فلسفية ظهرت حتى اليوم، تبدو قادرة على ارضائنا تماماً، طالما ان التجريبية تتسم بنزعة لا إنسانية ولا دينية، والعقلانية تهمل الطابع الملموس للعالم الحقيقي». ومن هنا يرى جيمس ان «ما من نظرية من هذه النظريات يمكن النظر اليها على أنها صورة مطلقة للواقع المعيوش». انها كلها في رأيه «نظريات نفعية، وأشكال ذهنية تعبر عن التكيف مع الواقع، أكثر منها كشوفاً وأجوبة تأتي لتجيب عن الألغاز التي تضعها ألوهية الكون في دربنا».

● ومن هنا يرى ويليام جيمس أن «البراغماتية هي الفلسفة الوحيدة التي تضع نفسها في متناول الإنسان، ذلك أن سيرنا على درب المعرفة يوجه، في كل خطوة من خطواتنا، من تفصيلاتنا ومصالحنا وحاجاتنا». ولهذا، «بدلاً من أن نأخذ كمعيار للحقيقة مبدأ ذهنياً أو عقلياً غير شخصي على الإطلاق»، ها هو ويليام جيمس يقترح علينا أن نتبنى فلسفة تلائم حاجاتنا وتطلعاتنا. وهنا - وتبعاً لمبادئ البراغماتية - لا يتعين علينا استبعاد أي فرضية إن كانت نتائجها ستتبدى مفيدة لحياتنا التي نعيشها، و«من هنا فإنه، في مسرى نمط تفكيرنا، من المؤكد ان الحقيقي، مثل الصائب، ليس سوى ذاك الذي يبدو ملائماً لنمط تحركنا وفعلنا وسلوكنا». وفي هذا المعنى يرى ويليام جيمس أن «حقيقة فكرة ما، ليست خاصة من خصائص تلك الفكرة موجودة في جذورها، وإنما هي حقيقة تكتسبها الفكرة لاحقاً: الفكرة «تصبح» حقيقية... لأنها تكتسب حقيقيتها مما يحدث، من تضافر الوقائع العملية.

وفي هذا الإطار يؤكد لنا ويليام جيمس ان الفلسفة ليس من مهمتها «رصد ما هو حقيقي» بل خلقه وإبداعه في شكل عملي. «اننا، يقول جيمس، نحصل على قطعة الرخام، لكننا نحن الذين ننحتها لنحولها تمثالاً». ويقيناً ان في وسعنا ان نستنتج من هذا كله ان ويليام جيمس لم يكن ليرى في تاريخ الفلسفة سوى «صراع بين شتى الأمزجة الفردية» بدءاً بأكثرها «رهافة» (العقلية) وصولاً الى الأكثر «همجية» (التجريبية). ومن هنا يبدو لنا من المنطقي أن يكون مؤرخو البراغماتية في القرن العشرين، سواء أكانوا من أنصارها أو من منتقديها، رأوا فيها، بعد كل شيء «نزعة انسانية تتنوع أطيافها بتنوع المثال الأعلى الحياتي الذي يدافع عنه كل فيلسوف من فلاسفتها». أما لدى ويليام جيمس، فإن البراغماتية، تتخذ - بحسب تحليل ثاقب لبعض كاتبي سيرته - «شكل نزعة روحية دينامية وتطورية في شكل خاص». أما مفكرنا العربي الراحل د. زكي نجيب محمود فيرى أن «جيمس انما أراد أن يحتفظ لكل فرد انساني بإرادته المستقلة لتقع عليه مسؤولية الخلي